

## الفكر اللساني عند العلامة عبد الرحمان الحاج صالح

## The linguistic thought of the scholar Abd al-Rahman al-Hajj Salih.

مصطفى طويل<sup>1</sup>\*<sup>1</sup> جامعة حسيبة بن بوعلوي الشلف (الجزائر) mustapha1964touil2014@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/18 تاريخ القبول: 2022/07/03 تاريخ النشر: 2022/12/27

في هذه الورقة البحثية أحاول أن استبين بعض مظاهر التفرد والتميز في مشروع عبد الرحمان الحاج صالح الضخم والتميز بشموليته وعمقه سواء كان ذلك البحث في المجال النظري أو التطبيقية الذي استغرق حياته المخبرية التي انصببت على إعادة قراءة التراث الأصيل متجاوزا إنتاج العلماء المتأخرين، وعمل على إعطاء هذا التراث الأصيل نفسا جديدا عن طريق تفعيله بالفكر اللساني العالمي المعاصر في فترة انكفأ فيها معظم الدارسين العرب على النظريات والمناهج التي تجاوزها البحث اللساني المتميز، فكان حقا رجلا مجددا للفكر اللساني الأصيل عن طريق بعثه، ونقده بمراجعات ذكية..

الكلمات المفتاحية: اللسانيات؛ عبد الرحمان الحاج صالح؛ الجزائر.

## Abstract:

In this paper I try to detect some semblance of uniqueness and excellence in Sheikh Abdul Rahman Haj Saleh Bruiser and comprehensiveness and depth whether that conceptual research awaltbiki which took Laboratory life focused on reread heritage scientists production surpassing latecomers, and give this heritage new breath through Activated by contemporary global tongue thought in a period where most Arab scholars around theories and methods overridden lingual search, it was really a man again for thought inherent through tongue Mission and criticizing the smart reviews.

Keywords: linguistics; Abd al-Rahman al-Haj Saleh; Algeria.

مقدمة:

المؤلف المرسل: مصطفى طويل

يعتبر العلامة عبد الرحمان الحاج صالح أيقونة من الأيقونات الفرائد في العلم اللساني العربي، وواحد من مرجعياته الركائز لأجيال اللسانيات الجزائرية خاصة والعربية عامة وبالخصوص إذا أردنا معرفة الواقع اللساني معرفة واعية. كما هي في طبيعتها وسيورتها التي تنظر إلى علم اللسان العربي نظرة متميزة لأنها نظرت إلى اللسان بعيون أولئك العلماء المتميزين، وبفكر تنويرات حديثة لأنها استفادت من المناهج الحديثة التي تشكل نظريات علمية لا تتعارض والحقائق العلمية الثابتة أما تلك الأفكار التي لم تنضج لدى أصحابها فقد كان ينظر إليها بمحاذير، وعلى تحوّف من أن يزجى بها في أتون البحث المتهور.

والعلامة عبد الرحمان الحاج صالح كان في كل ما يذهب إليه لا يريد أن يكون رجلاً إمّعة وإنما كان رجلاً ينشد المعرفة العلمية الحقة المتميزة، لأن مشروعه ضخم ومتميز، وأهدافه سامية لا تبتغي سوى الوقوف على المعرفة اللسانية كما أراد لها جهابذة الدرس اللساني العربي في كل العلوم والتخصصات، وأما العلماء المتأخرون الذين ألتف حولهم الكثير من الدارسين فقد كان يتحرى النظر في مناهجهم وفكرهم، لأنه علم حقّ اليقين أن الدرس اللساني عند هؤلاء لا بد أن يراجع من خلال تفحص مدونة العلماء الأوائل لأن ثمة بونا شاسعا بين فكر هؤلاء، وفكر الخليل ومن هم في طبقتهم، بالإضافة إلى العلماء المتميزين الذين انضوا تحت لواء هذه الطبقة كابن جني وعبد القاهر الجرجاني والرضي الاستراباذي والسهيلي والأعلم الشنتمري وتلميذه الألمعي ابن الحاج.

في هذه المقال أريد أن أتناول موضوعا يتعلق بالخور الأول أرصد فيه صفتين تميّز بهما بحث العلامة وهما: وعي الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح الثاقب بالواقع اللساني للعربية، وعلى طريقة لا هي شرقية ولا غربية. وقوة نظره الاستشراعية لمستقبل العربية حتى تستطيع أن تثبت في سماوة الفكر اللساني العالمي، ويحق لنا في هذا الشأن أن نقول بأن فكره "ككلمة طيبة أصلها في الأرض وفرعها في السماء" أصلها في أرض التراث الأصيل المتميز، وفرعها يمتد في أفق الفكر الإنساني المتفرد.

وقد هندست مداخلتي في الخطة التالية:

- 1- النظرة الشمولية الراسخة والمتميزة تنظيرا وتطبيقا.
- 2- الطرح العلمي الرياضي المركز.
- 3- بنية الخطاب والتخاطب رؤية عربية في ميزان البراغماتيك الأمريكية.
- 1- النظرة الشمولية الراسخة والمتميزة تنظيرا وتطبيقا<sup>1</sup>.

والحقيقة أن بحثي هذا هو تتبع أمين لما ورد في مدونة الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح خاصة في مقدمات كتبه التي تمثل - في نظري - منهجه الواضح والصريح في تعاطيه مع الدرس اللساني عموماً واللسانيات العربية على وجه الخصوص، هذه الأخيرة التي كان ينافح عنها بقوة خاصة من لدن تلك الأقلام غير المتخصصة. فهذا هو ذا يصف الكثير من هذه الكتابات "بصفات غير محمودة" لأن مؤلفيها -إلا القليل منها- الأولى هي أن مؤلفيها ليسوا من فرسان الميدان "غير متخصصين، فأكثرهم تخصصوا في علم الاجتماع أو علم النفس أو تاريخ الدب أو عدة مواد كالأدب واللغة وغير ذلك، وقل من تخصص في علم اللسان البشري هذه هي المنقصة الأولى، وأما الثانية فهي اقتصار هذه الكتب على المفاهيم والمناهج التي تعتبر الآن آثاراً بالية راجت في هذه البلاد منذ خمسين سنة... وهذه الكتب البالية تفوح رائحة الزهمة منها فلا يدرك القارئ العربي من وبالها شيئاً.

والثالثة هي عدم التفات القارئ إلى النقائص والأخطاء التي احتوت عليها الآراء والنظريات الأوربية القديمة والحديثة.<sup>2</sup>

وهناك أسباب أخرى، من أهمها ذلك التناسب الوضعي الذي يوجد بين علم اللسان الحديث، وبين علم العربية وأعني بمهذه التسمية الأخيرة علم اللسان العربي الذي وضعه العلماء الأوائل العرب، وهذا التناسب الغريب بين الأوضاع النظرية والمنهجية الذي امتاز به فكر الخليل وسيبويه ومن تبعهما، وبين الأوضاع العلمية الحديثة "وأخص منها أحدثها" لجدير بالدراسة<sup>3</sup>

ولعل من أهم ما ركز عليه هو تمييزه بين النظريات الصحيحة و النظريات غير الصحيحة، وقد "بين بأن النظريات الصحيحة هي التي تتكيف مع مرور الزمن وبمقتضى التوسع الاكتشافي المتواصل"<sup>4</sup>

كما ميّز بين ما تحدّث عنه والمناهج ، لأن هذه الأخيرة هي طرق تطرق يومياً بكيفية محسوسة ومسالك يسير عليها الباحثون في غالب أوقاتهم فيتعودونها ويألفونها فلا يريدون عنها بديلاً ... وقد أكد على أن أساليب البحث قد تسبق في الوجود النظريات، وهذه المناهج قد تؤدي في الكثير من الأحيان على بناء النظريات، كما يمتاز العلماء بعضهم عن بعض بمناهجهم أكثر مما يمتازون بنظرياتهم.<sup>5</sup>

- وهنا يشير العلامة إلى أمر مهم جداً، وهو ذلك الاعتقاد الفاسد الذي اعتمده الوصفيون السدّج "بأن اللجوء إلى الوصف المجرد من كل تعليل هو وحده يكفل نجاح البحث، بل ويصرح بقوله أن "الكثيرين في أيامنا يرون أن البحث الصحيح هو الذي يقول: كيف؟ و لا يقول لم؟ لأن مفهوم العلة ميتافيزيقي، ثم الظن في هذه الأيام الأخيرة بأن السلوك اللغوي هو الذي يستحق وحده أن يؤخذ بعين الاعتبار في

المشاهدات والعمليات الوصفية، وأما ما توارى من الظواهر... وقد تقرر عند هؤلاء نتيجة هذا نبذ المعيارية حتى كظاهرة أو كعنصر هام له دوره ومقامه في مجال اللغة.<sup>6</sup>

ومن بين هؤلاء الذين تشددوا في الوصف، وثاروا على المعيارية والتفسير والتعليل تمام حسان في كتابه اللغة بين المعيارية والوصفية.<sup>7</sup> وقد قال مؤلفه في هذا الشأن " إن المعروف في كل منهج علمي من مناهج البحث في الوقت الحاضر أنه يعنى أولا وأخرا بالإجابة عن "كيف" تتم هذه الظاهرة أو تلك، فإذا تعدى هذا النوع من الإجابة إلى محاولة الإجابة عن "لماذا" تتم هذه الظاهرة أو تلك ، لم يعد هذا منهجا علميا بل لا مفر من وصفه بالحدس والتخمين، وتفسير الإرادة، والبحث عن الحكمة الإلهية في وجود هذه الظواهر."<sup>8</sup>

والحقيقة أن الترجيح بين هذين التوجهين أثبتته النظريات التي تجاوزت الطرح البنوي وهي اللسانيات التوليدية التحويلية ، هذه الأخيرة التي عملت على معرفة الجانب الخفي من اللغة، وعملت على تفسيرها، ولم يعد الجانب الهيكلي هو المهم، وهنا دخل البحث مجال العقل والذهن والفكر.

نظرة الشيخ تطلعية لم تقف عند حدود البنى السطحية الشكلية، بل حاولت الولوج إلى عالم علاقة اللغة بالفكر، وهنا يمكن القول بأن هذه النظرة استشرفت أفق البحث اللساني الجديد، انطلاقا من تصورات القدامى.

والنظرة العلمية الصارمة تظهر بقوة في تلك المثل التي صاغها الشيخ للبنى التركيبية التي تتأسس على شكل معادلات العلاقة فيها بنائية أصولية، ووصلية فرعية، هذه الأخيرة التي تضبط الجمل المقيدة بالفضلات والتوابع، بل في كل مستويات التقييد الصداري، أو الحشوي أو اللاحقي المقطعي. أو ما يمكن تسميته بالطرح الرياضي العلمي في صوغ مثل البنى التركيبية.

أول صياغة للتركيب العربية: نظرية العمل العربية. وقد اهتدى فيها إلى أمر مهم، "وهو أن الفعل لا بد له من فاعل، ولا يتقدم هذا الأخير على فعله إطلاقا، والفعل يقع في موضع الابتداء والعوامل الأخرى التي تقوم مقامه. وهنا تكون المعادلة متكافئة بين التركيب الاسمي والتركيب الفعلي، غير أن المعمول الثاني فهو هنا ومن حيث اللفظ اختياري وهو المفعول به لأنه الأول في المرتبة التقديرية قبل جميع المفاعيل الأخرى."<sup>9</sup>

## 2- الطرح العلمي الرياضي المركز:

في اعتقادي ، يمكن لهذا الطرح أن يحدث التقارب بين الفكر اللساني للتركيب، وما تنطوية الحاسوبيات من معطيات رياضية، وهذا ما يجعل مهندسي الحاسوب في منأى عن الطروحات التي تسهب في الشرح ولا

تعتمد الظواهر اللسانية المطردة ، وكأني بهذا التوجه الرياضي نجد النظر لدى الدارسين والمتعلمين، والتحوّل من استطرادات اللغة الواصفة إلى الظفر بالفكرة من خلال طرحها الصيغي التجريدي الرياضي المرکز الذي يجمع شتات القواعد المبنوثة بين الأبواب النحوية، فتكون الرؤية واضحة مستجمعة ولنأخذ لهذا مثلا من النظرية الخليلية، وهو الضابط المنطقي الرياضي، وهذا كما قال الحاج صالح عبد الرحمان يمكن الحاسوب من تناولها في تشكيلات حوارزمية، وقد أثبتت الدراسات المتخصصة نجاعة ذلك.

ولنأخذ مثلا: [ ( ع — م<sup>1</sup> ) ± م<sup>2</sup> ] ± خ.

هذه المعادلة يمكن أن تشمل كل أنماط التركيب العربي المطرد — على غرار التراكيب النحوية الكلية للألسنة البشرية الطبيعية—. وبيان ذلك هو أنها:

— تمثل التركيب العربي الموسع الذي يظهر الجملة النووية/ البسيطة حيث إن ما بين قوسين يمثل ذلك:

— أي: - فعل + فاعل. وفي الجملة الاسمية المعمول الثاني لازم فيها" وهو الخبر"

— والسهم الوارد في الجملة يحقق فائدة كبرى تتمثل في فك الإشكال حول اختلاف أنماط التحليل التي انحدرت إلينا من مدرستي البصرة والكوفة، وما نراه في الجديد القدم في دراسات المحدثين.

— وإن ما هو داخل المعقوفتين يضم الجملة الاسمية إلى جنب الجملة الفعلية التي تتجاوز الممول الأول إلى الممول الثاني. أو ما يمكن أن نسميه النظر إلى الجملة باعتبار أهم عناصرها.

— والصيغة ككل تجسد التركيب الممتد، ويمكن أن نضيف إليه ما شئنا من الرموز لتطال الصيغة العناصر التي تتضمنها.

أنا أرى هذا الضابط التجريدي يصورن التراكيب فيضمن سلامتها النحوية، وهذا في وضعيتها البسيطة على مستوى الوصف.

ويمكن لهذه الصيغة أن تتطور بتركيز الضوء على العناصر المخصصة ويمكن أن ندعمه بمضامين الدلالات التي تخصص التراكيب. والمثال التالي يساعد على هذا [ ( ع — م<sup>1</sup> ) ± م<sup>2</sup> ] ± خ.

± خ { كل الفضلات ما عدا المفعول به + التوابع الخ... وهذه هي التي يتضمنها الجدول التالي التصنيفي الذي اعتمده تمام حسان في ضبط العلاقات المنعوية في اللغة العربية<sup>10</sup>

ملاحظات	الأبواب النحوية التي تخصها	العلاقات التي تنفع إليها هذه الفروع	العلاقات السياقية (أي القرائن المعنوية)
	العلاقة بين المبتدأ والخبر (باب الابتداء)	المسند إليه المسند	الاسناد
	العلاقة بين الفعل والفاعل الوصف المعتمد بفاعله بعض الخوالب بضمائمها		
ملاحظة: كل المنصوبات مخصصات لعموم الدلالة في الإسناد، بمعنى أنها دالة على جهة معينة في فهم علاقة الإسناد.	المفعول به المفعول لأجله المفعول معه المفعول فيه المفعول المطلق الحال الاستثناء التمييز	التعدية الغائية المعية الظرفية التأكيد الملازمة الإخراج التفسير	التخصيص
ملاحظة: بمعنى أنها توجد علاقة نسبية بين المجرور وبين معنى الحدث الذي في علاقة الإسناد.	يوجد ثلاثون قرينة معنوية للنسبة.	معاني حروف الجر. الإضافة	النسبة
ملاحظة: تتضافر معها قرائن لفظية أشهرها: المطابقة والرتبة.	باب التوابع	النعث العطف التوكيد البدل	التبعية
	موزعة على أبواب مختلفة.	الاختصاص المستثنى المنقطع نصب الاسم في التعجب النصب على الذم النصب على المدح	المخالفة

## ملاحظة:

في هذا المخطط يدرج تمام حسان المفعول به مع المخصصات وعلاقته تسمى التعدية، غير أن ما استثناء عبد الرحمان الحاج صالح قد ضمّه تمام حسان إلى المعمولات، ويبدو للمتجري في هذه المسألة أن ضم المفعول به إلى المعمولات تدعمه قاعدة ذهبية أتى بها عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز<sup>11</sup> في قوله: "وهنا أصل يجب ضبطه، وهو أن حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه، حاله مع الفاعل فكما أنك إذا قلت "ضرب زيد" فأسندت الفعل إلى الفاعل، كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلا له، لا أن تفيد وجوب الضرب في نفسه وعلى الإطلاق، كذلك إذا عدّيت الفعل إلى المفعول فقلت: "ضرب زيد عمرا" كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه، فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما إنما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذي اشتق منه بهما فعمل الرفع في الفاعل، ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه منه، والنصب في المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه، ولم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب في نفسه، بل إذا أريد الإخبار بوقوع الضرب ووجوده في الجملة من غير أن ينسب إلى فاعل أو مفعول، أو يتعرض لبيان ذلك، فالعبارة فيه أن يقال "كان ضرب" أو "وُجد ضرب" وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد في الشيء".<sup>4</sup>

والتدقيق في هذه المسألة، يشكل مرتكزا أساسيا في ضبط الدلالة المركزية، أو المعاني الأصول من المعاني التابعة لهذه الأصول. ونص الجرجاني بتمثيله يغنينا عن الشرح والاستشهاد. والمخصصات على تعددها تضبطها قاعدة جامعة هي أن علاقتها بالنواة الاسنادية علاقة متغيّر بثابت هذا على مستوى حركيتها، وهي لا تخرج عن كونها إما أن تكون:

أولا: زيادة إطالة في شكل خط مستقيم، مثل عطف البيان، وعطف النسق، والبدل والتوكيد الخ...

ثانيا: زيادة إطالة تضمينية كقيام تركيب مقام تركيب آخر أو مقام كلمة في "عامل" أو في "معمول" أو في "مخصص".

كما يمكن للتركيب أن تنمو وتمتد حسب ما يتطلبه المقام التواصلية بفضل إدخال عناصر أخرى تقل أو تكثر وتكون علاقتها بغيرها علاقة بناء أو وصل أو تضمّن، وتمثل هذه الوضعيات مستوى التصدير وما فوق العامل. وتمثل في الأدوات الداخلة على (ع، م، خ) ويعني هذا أن هذه الأدوات التي تحتل الصدارة

توجد في مستوى أعلى، حيث تتحكم في كل ما تدخل عليه، وتؤثر عليه تأثيرا لفظيا و معنويا، أو تأثير معنى فقط بحيث يبقى الشكل على حالته ، ويمكن أن نتصور لها الصيغة التالية:

التوكيد/ النفي / الاستفهام/الشرط { [ ع — م<sup>1</sup> ) ± م<sup>2</sup> ] ± خ . }

على سبيل المثال نأخذ توكيدا من الزيادة التصديرية الذي يصير الجملة التوليدية جملة محولة، يقول الله تعالى: ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم ﴾ الجمعة/8. يمكن وضعها في الصيغة التالية:

إنّ عامل مصدر لتوكيد الجملة) — [ ((م<sup>1</sup>+خ) + "نسبة\*ع — م<sup>2</sup>")) + رابط + (ع — م<sup>1</sup>+م<sup>2</sup>+خ "نسبة") ]

أو يمكن طرحها بصورة أخرى، ولها ما يسندها من آراء قوية باعتبار "الذي" الاسم الموصول هو مجرد وصلة اجتلبت في الكلام لتكون وصلة لوصف المعارف بالجملة كما جاء عن النحاة الأوائل: "أن "الذي" إنما وقع في الكلام توصلا إلى وصل المعارف بالجملة، وذلك أن الجملة نكرات. ، أي أن "الذي" مجرد أداة تعريف للجملة النكرات بعدها في مقابل تعريف "ال" للأسماء. والمثال التالي يقرب المسألة من باب المقارنة:

أ/ أقبل طالب فاز في السباق (طالب فائز)

ب/ أقبل الطالب الذي فاز في السباق (الطالب الفائز)

إنّ عامل مصدر لتوكيد الجملة) — [ ((م<sup>1</sup>+خ) + "نسبة\*ع — م<sup>2</sup>")) + رابط + (ع — م<sup>1</sup>+م<sup>2</sup>+خ "نسبة") ]. والذي يسوغ الأخذ بنظرية العامل، أنها منهج أو طريقة تضبط التغيرات وتربط مكونات الجملة وتفسر نظامها، كما تعين على إدراك العلاقات بين عناصرها وما ينجم عن هذه العلاقات من آثار معنوية ولفظية، وتمثل هذه الطريقة في فكرة العمل.

وهذا المنهج العملي هو عينه المناهج العلمية الواصفة والمفسرة والمؤولة، وهو الذي يساعد الحاسوبيين الرياضيين والحاسوبيين الفيزيائيين على تحليل قضايا اللسان، لأن العمل في اللسانيات الحاسوبية باختصار القول: هو نقل ما يشتغل عليه العقل الإنساني الحدسي إلى عقل الحاسوب غير الحدسي، وهو ما جعل نهاد الموسى المتخصص في هذا الميدان الذهاب إلى التفريق بين الوصف والتوصيف.

وقد بين عبد الرحمان الحاج صالح بأن لهذا المثال " فائدة عظيمة جدا، لأنه يمثل في صيغة واحدة كل الأبنية التي تحملها الجملة العربية. فمن ناحية الحكم الاعرابي: المعمول الأول هو دائما فاعل أو مبتدأ وما بمنزلة، و المعمول الثاني مفعول به أو خبر وما بمنزلة، ولا علاقة بين هذه الأشياء والمعاني التي



يقتضيها المسند والمسند إليه في حال من أحوال الخطاب، لأن بنية اللفظ شيء ودلالة هذه البنية الجزئية في حالة معينة من الخطاب شيء آخر.<sup>12</sup>

وقد بيّن في ذات الوقت أن المثال التركيبي - كمثال الكلمة على وزنها - يمثل أبنية اللفظ في حدّ ذاتها مجردة عن المعاني الكثيرة التي يمكن أن تدلّ عليها لأن هذه البنية في الحقيقة هي مستقلة عن المحتوى الدلالي والإفادة التي يمكن أن تحتوي عليه، وهذا هو ميدان النحاة، وقد دعا إليه النحاة الخليليون وهو -حقا- اكتشاف للبنية التي تمثل الهيكل العظمي للجملة. ثم يجب بعد ذلك أن يبحث في المعاني التي تدلّ عليها هذه الصيغ بالوضع في ال [code] وهو غير البنية اللفظية التي تستلزمها هذه المعاني الوضعية أحوال كثيرة من الخطاب.<sup>13</sup>

### 3- بنية الخطاب والتخاطب رؤية عربية في ميزان البراغماتيك الأمريكية:

موضوع كتاب الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح "الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية هو" هذا الخطاب وهذا التخاطب، أي هذا الجانب من الكلام الجاري بالفعل على الألسنة الذي تعرض له العوارض لا على الإطلاق بل في إطار النظرية اللغوية العربية التي اختص بها علماء اللغة العرب النحويون منهم والبلاغيون، وأهم ما تتصف به هذه النظرية هو التمييز بين اللغة وبين كيفية استعمالها في التخاطب، أي كيفية استعمال الناطقين لها وهو الكلام أو الخطاب.<sup>14</sup>

وقد بنى موضوعه على إشكالية أسفرت عن جملة من التساؤلات منها:

- على أي أساس تمّ لهم هذا التمييز بين اللغة وبين كيفية استعمالها في المخاطبات؟
- وما هي أهم المميزات التي اختص بها كل واحد منهما؟
- وما هي المقاييس العلمية التي اعتمد عليها العلماء العرب ليقرروا ما قرروه؟
- وهل لهذا التمييز فضل من الناحية العلمية بما يترتب عليه من الأوصاف الموضوعية لكل من اللغة والكلام؟

- والسؤال الكبير والمفصلي في تأسيس هذا العلم، وهو: هل تقتضي هذه الأوصاف غلى جعل التخاطب كيانا قائما بذاته، وما هي قوانينه الخاصة به؟

قبل البدء في تبيان هذه القضايا يجدر بنا أن نشير إلى أن الكثير من الدراسات قد أُنجزت حول موضوع الخطاب منها ما هو محاولة لرصد هذا العلم في إطار الفكر التخاطبي العالمي كمحاولة محمد محمد يونس في كتابه "مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب" حيث تعرض لمفهوم التخاطب في الثقافات الأجنبية.<sup>15</sup>

وأما رؤية الحاج صالح فهي مؤصلة لهذا العلم، حيث استقرأ جملة من المصطلحات ورصد مفاهيمها المختلفة، وكذلك تلك التي يحتضنها المفهوم الواحد. وقد تعرض للمعاني المختلفة للكلام، بحيث وجدها تدور حول ثلاث معانٍ قريب بعضها ببعض وهي:

- الكلام من حيث هو خطاب يحصل في التخاطب ويقابل اللسان أو اللغة بمعناها المحدث، وهو الموضوع الأساسي للكتاب.

- الكلام كطريقة في التعبير، ترادفه كلمة "لغة".

- الكلام كوحدة خطابية تستقل في تبليغ الغرض، وهو الكلام المستغني "عند سيويوه" أو الجملة المفيدة عند من جاء بعده.

وقد استطاع العلامة أن يميز "بين الكلام كبنية والكلام كخطاب، دون التخليط بينهما، وذلك عن طريق تفحص النصوص الكاملة غير المقطوعة عن سياقها لجمهرة النحاة المتميزين من أمثال سيويوه والرماني وعبد القاهر الجرجاني والزنجشيري والرضي الاستربادي الذين لم يضاهم أحد من النحاة والبلاغيين.<sup>16</sup>

لأن هؤلاء الأعلام لم يهتموا بالكلام من حيث بناؤه وتركيبه فقط، وفي حد ذاته، أي بالالتفات فقط إلى كيفية صياغته، فهذا سيويوه على سبيل المثال "لم يكتف بذكر ما يدل عليه الكلام في ظاهره، بل يتجاوز هذا إلى الالتفات إلى دور المخاطب والمتكلم وبصفة خاصة إلى كيفية حصول التفاهم بينهما لا بالاعتماد فقط على ما يدل عليه الكلام بلفظه وحده، بل بالرجوع قبل كل شيء إلى ما هو خارج عن اللفظ المنطوق به، وهي الأدلة التي تقترن بها عملية التلطف بالكلام.<sup>17</sup>

وهذه القضايا غير اللفظية كثيرة ومتنوعة يذكر النحاة الأوائل الكثير منها مثل:

- دلالة الحال.

- استدلال المخاطب مما يسمعه، وكل ما هو في ذاكرته من المعلومات والتجارب، ويسميه سيويوه "بعلم المخاطب" وهذا الاهتمام بالظواهر التخاطبية أمر عجيب كونهم ادجوا بين البنية النحوية التي لها مدلول من جهة ومن حيث هي وحدة خطابية لها لفظ منطوق ومعنى مقصود من جهة أخرى. أي أنهم ميزوا بين الوصف العلمي للبنية اللغوية وتقنينها، وبين الوصف لاستعمالاتها وقوانين هذا الاستعمال. وقد فصل الشيخ في الفصل الثالث من كتابه الخطاب وقوامه المادي، وأهم عناصر الخطاب الخارجية، وهي الدلائل الخارجة عن كلام المتكلم، أي عن قوامه المادي الصوتي الملفوظ. ورصد لذلك مخططاً تفصيلياً لدورة التخاطب عند العلماء العرب، وهي تمثل شبكة من القنوات.<sup>18</sup>

وقد أكد على مبدأ الاندماج الدلالي أو الاقتران الدلالي<sup>19</sup>، وبين العماد الذي تعتمد عليه كل القرائن وهو دليل العقل، وقد عدّه الشيخ "جزءاً هاماً من علم المخاطب لأن المتكلم يقوم باستدلال عقلي يؤدي إلى المعنى المراد من مجموع هذه الدلائل قال القاضي عبد الجبار معللاً "لأن الدليل العقلي كالقرينة فإذا علم أنه لو قارنه كلام متصل لدلّ على الوجه الذي يقتضيه مجموعهُ."<sup>20</sup>

والأدلة الخارجية "غير اللفظية" بالنسبة إلى التخاطب هي عناصر مهمة جداً تساوي تماماً الأدلة اللفظية، وليست فقط متممة لها.

كما ميّز بين نوعين من الزيادة، فذكر بأن هناك زيادة أصلية، وزيادة خطابية، وهذه الأخيرة زيادة في البيان. وقد رأى أن النوع الثاني لا يمكن الاستغناء عنه بالحذف، على خلاف الزيادة الأصلية التي يمكن أن يستغنى عنها بالحذف إن توافرت قرائن أخرى مصاحبة ما لم يجلب هذا الحذف الإلباس.

والأمر الذي يحسب للعلامة أن نظرية التخاطب اهتدى إليها بتفحص كتب النحو الأصلية التي رصدت أحوال الخطاب ووجوه الاستعمال العربي في عصر الفصاحة اللغوية والفصاحة البيانية. وهي بحوث جادة لم تقف عند حدود التراكم كأشكال وإنما رصدت هذه المدونات البنية الخطابية التخاطبية كما هي في الاستعمال الحقيقي بكل ملاسباته، وهذا المنحى عُيّب في كتب النحو المتأخرة التي صورت البنى في قوالب صماء بعيدة عن وجوه الاستعمال الحقيقي.

وقضية الاستعمال التي ركز عليها العلامة ولدت الكثير من القضايا المهمة التي قلما التفت إليها الدارسون المحدثون، منها إشكالية التعبير الذي رأى الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح بأنه نوعان: التعبير العفوي الاسترسالي، والتعبير الرسمي الاجلالي. ولعل التوجه الذي اعتمده في في تناول موضوع التعبير العفوي الاسترسالي هو ديداكتيكي بيداغوجي. وهذا بناء على فهمه لمنطق اللغة الذي ينجح إلى التخفيف بالنظر إلى مستعمل اللغة الذي يتميز بالكسل وحب الاقتصاد و التقليل من الكلفة الأدائية. وقد اهتم علماء اللسانيات في هذا العصر بالاقتصاد اللغوي لما فيه من فائدة على المرسل والمرسل إليه، وفيه "يخضع سلوك الإنسان إلى قانون أضعف الجهد الذي لا يجهد الإنسان وفقه إلا بالقدر الذي يمكن أن يبلغ فيه الأهداف التي ارتسمها لنفسه"<sup>21</sup>

ولعل المنطلقات التي بنى عليها تصوره لهذا النوع من التعبير أسبابها بيئية ومن أهمها التوجه المغاربي في قراءة ورش عن طريق الأزرق المعروفة بعدم التحقيق والحدرد.

وهذه القراءة المتميزة تستحلب قوانينها من ظواهر لسانية صوتية وافرادية بل وتركيبية أيضا من واقع اللغة العربية كملكة استعماله .

والحقيقة أن ظاهرة الاقتصاد اللغوي تشمل كل مظاهر الاستخفاف من إدغام وتخفيف للهمزة أو حذفها واختزال واختصار للكلام ، واختلاس للحروف والحركات و إبدال وغيرها ، و قد اعترف بهذا كبار رواة اللغة وعلمائها ، يشهد على ذلك ما نقله الحاج صالح عن أبي العيلاء\* أنه قال : " ما رأيت مثل الأصمعي قط أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب " ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء\* يقول : كلام العرب الدَّرَج ،... وسمعت يونس بن حبيب يقول : العرب تشام الإعراب ولا تحققه ، وسمعت الخشخاش بن الحبحاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف "22 .

ويحدث هذا في الكلام العادي أو في القراءات القرآنية ، و "إذا اجتمعت همزتان مفتوحتان في كلمتين متجاورتين فقالون يسقط أولاهما ، أي يحذفها بالكلية ويحقق الثانية مثل : قوله تعالى : " جاء أمرنا " و " جاء أجلهم " و " إذا شاء أنشره " والأكثر على هذا (أي حذف الأولى)، فتكون في قراءته " جا أمرنا " وهكذا مع البقية وقال بعضهم بحذف الثانية، وورش يحقق الأولى ويُسهّل الثانية "23 . قال سيويه : " فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتُحَقَّقًا "24 .

وقد عاب الحاج صالح على المعلمين الذين لا يعرفون هذا الوجه في الهمز وهو التخفيف والإبدال فقال : وكم من معلم يُحَطِّئُ التلميذ الذي ينطق بهذه الكلمات بدون همزة مثل يومنون يومن ، ياخذ ، ذيب ، بير ... ، وقد استشهد بقول سيويه : " إذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنك تُصَيِّرُها بين بين ، وذلك قولك : هذا درهمٌ أُحتك ، ومن عند أُمك وهو قول العرب وقول الخليل "25 .

و يعتقد الكثير من الناس - و منهم من ينتسبون إلى حقل التربية والتعليم- أنّ ما هو موجود في العامية لا صلة له بالفصحى ، والحقيقة غير ذلك فقد صرّح الحاج صالح - رحمه الله- أنّ 80/ من ألفاظ التخاطب اليومي في وقتنا الراهن هي فصيحة أو قريبة جدا من الفصيحة ، ولكن الذي يحدث أن من ينجح إلى هذا التعبير الاسترسالي للتعبير عن الحاجات العادية وفي حالة أنس يتعرض للاستهزاء والسخرية ... ومع الأسف أن الذي رسخ في أذهان المعلمين أن اللغة العربية ليس لها إلا كيفية واحدة في التعبير ، وهو المستوى الذي اسميناه بالإجلالي الترتيلي... "26

و بناء على ما مر بنا يمكننا القول بأن الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح أكد على أن مجرد الاهتمام بتنميق الألفاظ والعبارات لوحده لا يكفي في تبليغ المعنى المراد إلى المتلقين ما لم يتم مراعاة متطلبات المقام ،

ونظم الكلام وفق ما يحتاجه من تخفيف أو حذف ، أو إعادة وتكرار ، فقال : " إنَّ اللغة إذا صارت تُكتسب الملكة فيها بالتلقين وإذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير وجماله فقط -أو ما يبدو أنه كذلك - واستهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتدال واسع للألفاظ تقلّصت رقعة استعمالها ، وصارت لغة أدبية محضّة، وعجزت حينئذ أن تُعبّر عمّا تعبر عنه لغة التخاطب الحقيقية سواء كانت عامية أم لغة أجنبية " <sup>27</sup>

ويقرر مؤكداً بأنّ هذين المستويين من التعبير كانا موجودين بالفعل في استعمال الفصحاء السليبيين والفرق الوحيد الذي يميزنا عنهم هو أن كلا المستويين كان فصيحاً مرضياً عنه إذ لم يكن إلا وجهها في أداء العربية لا يختلف أحدهما عن الآخر من حيث البنية النحوية والصرفية... خلافاً لما نحن عليه اليوم إذ قد زاغت لغة التخاطب العفوي عن كلا الوجهين: الإجلالي و الاسترسالي الفصيحين بخروجهما عن أصول العربية الإعرابية والتصريفية والتركيبية في أغلب أحوالها <sup>28</sup>.

ويرى أنّ من أفضل السبل للتغلب على اللهجات العامية واللغات الأجنبية التي فرضت نفسها في الواقع التداولي كبديل عن اللغة الفصحى هو العودة إلى المستوى العفوي الفصيح فقال : " فالذي نرجو ونعمل من أجل تحقيقه إذاً هو أن نرجع للعربية الفصحى التي نعلمها صياناً مستويها الطبيعيين حتى نستطيع أن تغالب العامية واللغات الأجنبية وتحل محلها في أكثر المناسبات ، إذ بوجود المستوى المستخف -والفصيح - يستطيع الطفل أن يستغني عن العامية بما يحتاج إليه من خفة " <sup>29</sup>

**والنتائج التي يمكن الخلوص إليها هي:**

- أن الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح عالم متميز ينظر إلى اللسان العربي نظرة متفردة متميزة، تختلف جذريا عن تلك الرؤى الضيقة. لأجل هذه الرؤية قدم لنا أعمالاً نظرت إلى اللسان العربي بعيون التحري، والتأمل، والتطلب التي تنتج أعمالاً لا يمكنها أن تزّل في فترة من الفترات لأنها لامست اللسان في أخصّ خصائصه الثابتة الجوهرية، وأما الفروع التي تبنى عليها فلا شك أنها وإن اختلفت وتنوعت فإنها من صميم المتغير في فلك الأصول الثوابت التي لا تتحلل ولا تزول.

- كان يتمتع بعقل حصيف يميز بين المسائل العلمية الثابتة التي تثبت شامخة أمام تحديات العصر، و النظريات المحدودة، فقد تورد على الوصفين النبويين، واستشرف مستقبل النظرية التوليدية التحويلية وما تمخّض عنها من نظريات دلالية متعاقبة.

- تناول علم الخطاب والتخاطب بناء على رؤية النحاة الأوائل المؤسسين له في تناولهم للبنى ودلالاتها، من خلال مدونة متميزة، وضع في صدارتها كتاب سيبويه، وكتب أبي علي الفارسي وبالأخص كتب تلميذه ابن جني التي لم تنظر للعربية نظرة بنوية شكلية صرفة وإنما تناولتها من منظور تحليلي متطور ظهرت فيه مختلف الأبعاد الاستعمالية التخاطبية. واستطاع أن يحدد للخطاب دورة تخاطبية عربية منمازة عن غيرها. رصد من خلالها البعد اللساني البنوي والأبعاد خارج لسانية، وقد ركز على مبدئين مهمين هما: مبدأ الاندماج بين هذين البعدين، ومبدأ الدلالة العقلية التي يشغل عليها كل من المتكلم والمخاطب.

- مشروعه البحثي متكامل، ومتدرج، حيث بدأ بدراسة اللغة من منظور بنوي تأسيسي، ثم غار في أعماق البنية اللغوية فحاول معرفة فلسفتها من خلال كتابه "منطق العرب في علوم اللسان" فبيّن منهج نحاة العرب في دراسة لسانهم، وبين مختلف الوسائل التي تعتمد في كثيرا على العقل، فبيّن منطق العرب الطبيعي الذي يختلف عن منطق غيرهم. كما ضبط خصائص الاستدلال في علوم العربية، وقدم التمثيل العلمي لمثل العربية. وكل ذلك التمسه من كتب الأعلام في مختلف العلوم والتخصصات.

- اللغة العربية في دراساته تبدو مختلفة عن غيره، كونه تناول القضايا الثابتة في التراث بنظرة استشرافية حدد من خلالها واقعا لغويا مترديا، مقدما البدائل العجيبة الرائدة، فقد استطاع أن يحدد السبل الناجعة للتغلب على اللهجات العامية واللغات الأجنبية بفضل توظيف المستوى العفوي الاسترسالي الذي كان عند القدامى مستوى لا يقل أهمية عن المستوى الاجلالي.

### مراجع البحث:

- بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة النونسلام العربية.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية "جزءان".
- الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني،، تح: محمود محمد شاکر، هيئة الكتاب مصر 2000.
- الكتاب لسيبويه، تح: عبد السلام هرون، دار الجيل بيروت ط: 1.
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الدار العربية لبنان، ط: 2 1988.
- مبادئ اللسانيات العامة، لاوندي مارتنيه، تر: الزبير سعدي، دار الأفاق، 1999.
- مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، لمحمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة ليبيا، ط: 1 2004.

- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع، للشيخ سيدي ابراهيم المارعي، دار الفكر لبنان، 1995.

- مقال البنى النحوية الفعلية في كتاب الخصائص لابن جني منهج وتحليل، لمصطفى طویل، مجلة القلم، جامعة وهران، العدد 2016/34.

- وأيضا يعتبر مشروعه اللساني شموليا لأنه أسس لعمله تأسيسا علميا ابتداء من موضوع رسالة الدكتوراه حول اللسانيات العربية واللسانيات العامة دراسة في المنهج والابستمولوجيا. ثم قدم بحثه المتميز حول المنهج العلمي العربي المتميز والذي يمثل مهيعا خاصا، فظهره عن طريق الفحص والتحري والضبط وهو كتاب " السماع اللغوي العلمي ومفهوم الفصاحة" ثم دافع عن أصالة الفكر اللساني العربي في كبرى قضاياها التي ثار حول الجدال، يمكن الرجوع إليها في كتابه " منطوق العرب في علوم اللسان" ثم في كتابه الثالث " بحوث ودراسات في اللسانيات العربية بجزئيه" قدم تطبيقات إلى كل ما ذهب إليه، ناهيك عن إضافاته النوعية في أمهات قضايا الساعة، كالمصطلحيات، ومشروع الذخيرة بالإضافة إلى النظرية الخليلية، وأما كتابه الرابع، فهو نظرة أخرى إلى اللسان العربي ولكن في خضم دائرة التخاطب بين الوضع والاستعمال، وقد استطاع أن يرصدها في أعمال النحاة الأوائل ورسم فيها تلك الدورة التخاطبية العربية التي لا تقل أهمية عن النظرة الجاكبسونية. وقد تناول فيها الجوانب الخفية في اللسان وهي رعاية مقتضى الحال، والعلم بالمخاطب، والسياقات بصورة عامة، وقد انطلق من رؤية النحاة الأوائل وما قدموه من رؤى نظرية، وأما كتابه الأخير فهو الذي قدم له بمقال له في مجلة الجمع قبل وفاته بقليل،<sup>1</sup> وأبرز فيه قيمة النظر العلمي في ضبط البنى النحوية، كما فرق فيه بين النحو العلمي والنحو التعليمي.

<sup>2</sup> - انظر بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمان الحاج صالح، الصفحة 8 وما بعدها.

نفسه ص: 10. وقد أضاف أسبابا أخرى منها عدم توفر المصطلحات العربية لتأدية كل هذه المعاني العلمية الهامة. ومن بين ما كان ينادي به -هو" ضرورة المزامنة والمسيرة اللغوية الكاملة، لأنها من أهم شروط التقدم، وأشد الناس احتياجا لها<sup>3</sup> هم الباحثون

<sup>4</sup> - نفسه ص: 15. وقد بين الغاية من هذا وهو إمكانية إدخال التعديلات التي يفرضها التوسع المذكور سالفًا.

<sup>5</sup> - نفسه، ص: 15 و 16 بتصرف طفيف.

- نفسه، ص: 17 و 18 بتصرف وقد بين بعد ذلك أن من يبعد من الدرس اللساني التفسير والتعليل فقد أبعد نصف<sup>6</sup> العلم.

<sup>7</sup> - انظر كتاب اللغة بين المعيارية والوصفية لتمام حسان ص: 50 وما بعدها. في فصلي المعيارية والوصفية.

<sup>8</sup> - نفسه، ص: 50.

<sup>9</sup> - انظر بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1 ص: 310 وما بعدها لمزيد بيان وتفصيل.

<sup>10</sup> - انظر اللغة العربية معناها ومبناها، لتمام حسان، ص: 1 الفصل الخامس، النظام النحوي 178 وما بعدها.

<sup>11</sup> - دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجاني، صك 153. وانظر كتاب المقصد للجرجاني، تح: كاظم بحر المرجان، 328/1

- 12- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج/1، ص: 311، 312.
- نفسه، ص: 312. وقد توج الشيخ هذه الفكرة بكتاب رائد في نظرية الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية.<sup>13</sup>
- الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية. عبد الرحمان الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، ص: 8.<sup>14</sup>
- 14- نظر الفصل الأول من كتابه " مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب " دار الكتاب الجديدة المتحدة لبنان ط: 1 2004. فقدم تعريفا لهذا العلم من خلال كتاب مبادئ البراغماتية لليتش كوتراج وهو " دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات التخاطبية " وبين الفرق بين هذا العلم وعلم الدلالة، وهو أن علم الدلالة يدرس اللغة بمعزل عن السياق، والتخاطب ينظر إلى الكلام في المقام التواصل الحى.
- كما أن ثمة دراسات حاولت أن تنظر إلى الخطاب في دائرة واسعة تشمل المدونة العربية والاسلامية غير أن تلك النظرة لم تكن مؤصلة له.
- انظر الخطاب والتخاطب ص: 16. وهنا أحب أن انوه بان الشيخ دائما نجدّه يميز بين كتب النحاة المبرزين المتقدمين والنحاة المتأخرين.<sup>16</sup>
- 17- نفسه، ص: 44.
- انظر هذه الدورة في الصفحة 54 من كتاب الخطاب والتخاطب.، وقد بيّن بأنها شبكة من الدلائل المندمجة " باقتراحها " عند العرب.<sup>18</sup>
- 19- والاندماج الدلالي وهو من تأثير الدلائل الخارجية على الكلام الملفوظ والمقتزى به على المتكلم.<sup>19</sup>
- 20- نفسه ص: 60.
- 21- انظر مبادئ في اللسانيات العامة لاندرى مارتينييه، تر: سعدي الزبيز، دار الأفاق، 1999، ص: 51.
- 22- انظر بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج/1 ص: 77 وما بعدها.
- 23- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع، ص: 56.
- 24- الكتاب، 29/4.
- 25- انظر الكتاب لسبيويه، تح: عبد السلام هارون، 25/4.
- انظر لمزيد بيان وتفصيل، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج/1 74 وما بعدها: لغة التخاطب الفصيحة العفوية ومميزاتها.<sup>26</sup>
- 27- نفسه، ص: ج/2 74.
- 28- نفسه: 75.
- 29- نفسه، 75.